الفصل السابع

اغتصاب النمسا

obeikandl.com

obeikandl.com

عندما تنهزم دولة من الدول أثناء الحرب، فإنها تبقى محتفظة بكيانها وجهازها وسرية وثائقها، وقد استطعنا أن نحصل على أسرار العدو بكامله، بعد أن خضنا غمار الحرب إلى نهايتها، وكان بإمكاننا أن نتأكد من صحة المعلومات التي توفرت لنا في السابق، وما قمنا به أثناء الحرب على ضوء تلك المستندات والوثائق التي حصلنا عليها في النهاية، ففي شهر تموز عام ١٩٣٦، كان هتلر قد أصدر أوامره بإجراء الاستعدادات ووضع الخطط لاحتلال النمسا عندما يحين الوقت المناسب، وقد دعيت هذه العملية عملية «أوتو»، وقد كشف عن مخططه هذا في الخامس من شهر تشرين الآخر عام ١٩٣٧ عندما قال لقادة القوات المسلحة بأنه يترتب على ألمانيا أن تضمن لنفسها «أمنها الحيوي» وهذا المدى يمكن ضمانه في شرقي أوروبا، أي بولندا وروسيا البيضاء وأوكرانيا، أما احتلال هذه البلدان فيعني حربًا رئيسية وإبادة للشعوب التي تعيش في تلك المناطق، لذلك وجب على ألمانيا أن تصفي حسابها أيضًا مع «العدوين المكروهين» إنكلترا وفرنسا اللتين تعتبران أن قيام العملاق الألماني وسط أوروبا سيكون غير محتمل، ولكي تستغل ألمانيا ما وصلت إليه من تفوق في الميدان العسكري، وما بعثه الحزب النازي من حماس وطني صادق، فإن من الواجب عليها أن تقوم بالهجوم في أول فرصة ممكنة، لكي تقضي على هاتين العدوتين، قبل أن تتمكنا من الاستعداد.

لقد كان هناك سببان آخران دفعًا بهتلر إلى اغتصاب النمسا خلاف ما ذكره من تصميم في كتابه «كفاحي» من رغبته في ضم جميع الشعوب التوتونية إلى الرايخ، فاحتلال النمسا يعني فتح أبواب تشيكوسلوفاكيا من جهة، ومداخل جنوب شرق أوروبا من جهة أخرى.

أما داخل النمسا فكانت الحركة النازية تنمو مع كل انتصار يحققه هتلر سواء في داخل ألمانيا أم في خارجها، وقد صدرت تعليمات خاصة إلى فون بابن لكي يبقى على أحسن العلاقات مع الحكومة النمساوية بالإضافة إلى محاولته الحصول على اعتراف رسمي من الحكومة بالحزب النازي النمسوي كمؤسسة مشروعة، وأتقن فون بابن دوره وعمل بذكاء كبير داخل النمسا، وقد رضخ الكثير من الزعماء النمساويين لضغطه ومكائده، وكانت الحركة السياحية التي تعتمد عليها النمسا، قد تأثرت إلى حد كبير نتيجة للاضطرابات

الداخلية ولأعمال الإرهاب ولحوادث القنابل التي كانت تهز أسس الجمهورية المسلوبة .

وساد الاعتقاد أن الوقت قد حان لاستلام زمام الأمور عن طريق إدخال زعماء الحزب النازي النمسوي إلى الحكم عن طريق الوزراء ، بعد أن تم الاعتراف به مؤخرًا ..

وفي الثاني عشر من شهر شباط عام ١٩٣٨ استدعى هتلر المستشار النمساوي الهر فون شوشنيغ إلى مقره في برختسغادن .. وحضر المستشار برفقة وزير خارجيته غيدو شميدت، وبين أيدينا الآن نسخة عما كتبه شوشنيغ عن هذه المقابلة التي جرت بينه وبين هتلر ، وننقل النص الحرفي لهذا الحوار .

وقد بدأ هتلر بالسخرية من التحصينات العسكرية التي أقامتها الحكومة النمسوية على الحدود وقال: إنها لا تتطلب أي مجهود من المعتدي سوى عملية عسكرية بسيطة لإزالتها من الوجود، ثم استطرد قائلاً :

هتلر : لن أحتاج إلا لإصدار أمر ، وستختفي هذه الخيالات المضحكة التي وضعتوها على الحدود ، في ليلة واحدة ، ولا أظن أنكم تصدقون أن في إمكانكم الوقوف أمامي أكثر من نصف ساعة ، ومن يعلم ، فقد أصل إلى فينا فجأة كعاصفة من عواصف الربيع ، وعندئذ ستختبرون تجربة جديدة ، لكني أريد أن أوفر عليكم هذه التجربة ، التي ستكلفكم الكثيرين من الضحايا، فبعد الجيش ، سيصل جيش الصاعقة ، ثم الحرس النازي ، وعندئذ لن يتمكن أحد من أن يمنعهم من الثأر ، حتى أنا نفسي ، فهل تريد أن تجعل من النمسا إسبانيا أخرى ، إن كل ما أريده أنا هو تجنيبكم كل هذا.

شوشنيغ : سأوقف عملية التحصينات الدفاعية على الحدود في الحال ، كما أني واثق من أنك تستطيع أن تزحف على النمسا ، ولكن ، يا سيدي المستشار ، إن زحفكم هذا سيؤدي إلى سفك الكثير من الدماء وربما سيؤدي إلى حرب عالمية ، فأنت تعلم أننا لسنا وحيدين في العالم !

هتلر : إنه لمن السهل أن تقول كل هذا ، وأنت جالس على كرسيك المريح ، إلا أن وراء هذه الأقوال الكثير من الويلات والدماء ، فهل أنت على استعداد لتحمل مسؤولية

كلامك؟ لا تعتقد أن في هذا العالم من يستطيع أن يقف بيني وبين ما قررت أن أنفذه، أتقصد إيطاليا؟ لقد تفاهمت مع موسوليني ونحن الآن على خير ما نكون من؟ إنكلترا؟ لن ترفع أصبعًا واحدًا من أجلكم! فرنسا؟ لقد غامرت، منذ سنتين، عندما زحفت لاحتلال منطقة الراين بمجموعة من الكتائب، ولو قابلت فرنسا هذا الزحف بالهجوم لاضطررت إلى الانسحاب... أما الآن فقد أضاعت فرنسا الفرصة على نفسها.

حصلت تلك المقابلة الأولى في تمام الساعة الحادية عشرة صباحًا، وبعد الغذاء استدعي النمسويون إلى غرفة صغيرة كان بانتظارهم فيها ريبنتروب وبابن، حيث قاما بتسليمهم الإنذار الخطي الذي لم يكن يقبل أي مناقشة، وقد تضمن الإنذار تعيين، سايكس ـ انكورات وهو نمسوي نازي، وزيرًا للأمن في الحكومة النمساوية، كذلك تضمن الإنذار عفوًا شاملاً عن جميع النازيين المعتقلين، ثم ضم الحزب النازي النمسوي رسميًا إلى الجبهة الوطنية التي تشرف عليها الدولة.

وبعد ذلك استقبل هتلر المستشار شوشنيغ وقال له: «سأكرر عليك، أن هذه هي فرصتكم الأخيرة، وإني منتظر تنفيذ الشروط خلال ثلاثة أيام»، وفي مذكرات «يودل» عن نفس هذه الحادثة العبارة التالية: «وقد تعرض فون شوشنيغ وغيدو شميدت إلى أعنف ضغط سياسي وعسكري، إلى أن وقع البروتوكول في تمام الساعة الحادية عشر مساء» وعندما عاد فون بابن مع شوشنيغ قال له: «هذه هي طريقة الفوهرر، وقد اختبرتها بنفسك، ولكن في المرة المقبلة سيكون الفوهرر شخصًا آخر، إنه للحقيقة ساحر كبير».

ومضت المهزلة بأن أرسل موسوليني برسالة شفوية إلى شوشنيغ يقول له: إن ما جرى في برختسغادن كان مشرفًا وعادلاً، ثم أكد له أن موقف إيطاليا من النمسا لن يتغير أبدًا، كذلك أعرب له عن إخلاصه وصداقته الشخصية له، وفي الثالث من شهر آذار بعث شوشنيغ برسالة سرية إلى موسوليني يعلمه فيها أنه قد عزم على إجراء استفتاء شعبي عن الوضع السياسي، وبعد أربع وعشرين ساعة جاءه الرد من الملحق العسكري لبلاده، يخبره باجتماعه بموسوليني ويحذره من مغبة هذا الاستفتاء الذي وصفه بأنه «خطيئة» وقال: إن كانت النتيجة مرضية فسيقول الناس أن الاستفتاء لم يكن نزيهًا، أما إذا لم يكن مرضيًا

فسيصبح وضع الحكومة حرجًا للغاية ، وإذا كانت النتيجة كلمة فلن تكون ذات نفع على الإطلاق ، إلا أن شوشنيغ لم يأخذ بنصيحة موسوليني وتحذيره ، فقد أعلن في اليوم التاسع من شهر آذار عن رغبته في إجراء استفتاء عام في جميع البلاد صباح الأحد القادم في الثالث عشر من الشهر الجاري .

وفي بداية الأمر ، بدا أن سايكس ـ إنكورات قد قبل بالفكرة ، إلا أنه في صباح يوم الحادي عشر تلقي شوشنيغ مكالمة هاتفية من مركز الشرطة في فيينا تقول: إن الحدود الألمانية في سالزبورغ قد أقفلت ، وسحب موظفو الجمارك الألمان وقطعت مواصلات السكك الحديدية ، ووصلت رسالة ثانية من القنصل في ميونيخ تقول: إن القوات الألمانية متأهبة للتوجه إلى النمسا .

وبعد قليل وصل سايكس ـ إنكوارت ليخبره أن غورنغ طلب منه أن يلغي الاستفتاء خلال ساعة ، وإذا لم يصله الرد بالإلغاء خلال المدة المذكورة فسيفترض أن سايكس ـ أنكوارت قد منع من استخدام الهاتف للاتصال به ، وأنه سيتصرف على ضوء هذا الافتراض ، وعندما علم شوشنيغ أن الجيش لا يمكن الاعتماد عليه ، أبلغ سايكس ـ أنكوارت أن الاستفتاء قد ألغي ، وبعد ربع ساعة عاد هذا يحمل إليه خبرًا سجله على ورقة كتب فيها :

« لا يمكن إنقاذ الوضع إلا باستقالة شوشنيغ في الحال ، وإذا لم يعين سايكس ـ أنكوارت خلال ساعتين مستشارًا ، فإن غزو ألمانيا للنمسا سيتلوه فورًا » .

وفي خلال هذا الوقت انتظر شوشنيغ وصول الرئيس ميكلاس ليقدم له استقالته ، وعندما دخل إلى مكتب الرئيس جاءته رسالة بالشفرة من الحكومة الإيطالية تقول: إنه ليس في إمكانها تقديم النصح مرة أخرى أو أن تقوم بأي عمل من أجلهم ، ورفض الرئيس تعيين المستشار النازي، وقرر أن يجبر الألمان على القيام بأعمال عنيفة معيبة ، لكنهم كانوا على أتم الاستعداد لارتكاب هذه الأعمال ، فأصدر هتلر أوامره بالزحف على النمسا ومباشرة عملية «أوتو».

وفي محاكمات نورمبرغ قدمت هذه المحادثة الهاتفية التي دارت بين هتلر وبين الأمير فيليب هيسي، مبعوثه الخاص إلى الدوتشي، التي قدمت كوثيقة هامة، وجدنا أن ننقلها بنصها الحرفي:

هيسي: لقد وصلت لتوي من قصر البندقية، وقد وافق الدوتشي على الموضوع بروح ودية، وهو يرسل إليك بالتحيات والاحترام، وقد وصلته المعلومات من النمسا ومن شوشنيغ بالذات، وأعلن أن تدخل إيطاليا هو مستحيل، وهو لن يعدو أن يكون إلا كذبة كبيرة أو «بلفة» وليس في إمكانه أن يقوم بها، وهكذا أفهم شوشنيغ أن سوء الحظ قضى بذلك، ولا يمكن تبديل الأمور الآن، ولم يلبث أن أعلن موسوليني أن أمر النمسا لا يهمه على الإطلاق.

هتلر: حسنًا، أخبر موسوليني، أني لن أنسى عمله هذا.

هيسي: نعم.

هتلر: أبدًا، أبدًا، مهما حصل، وأنا لا زلت مستعدًا لإجراء معاهدة مختلفة معه.

هيسي: نعم، وقد أخبرته بذلك أيضًا.

هتلر: وعندما تنتهي عملية النمسا، سأكون مستعدًا للمضي معه إلى آخر الطريق، ولن يهمني شيء.

هيسي: نعم أيها الفوهرر.

هتلر: اسمع، سأعقد أي معاهدة، ولن أخشى بعد الآن عما سيترتب من الناحية العسكرية إذا ما اشتبكنا في صراع ما، ويمكنك إبلاغه شكري العميق، ولن أنسى مطلقًا عمله هذا.

هيسي: نعم، أيها الفوهرر.

هتلر: لن أنساه مطلقًا، مهما حدث، وإذا ما احتاج إلى أي مساعدة، أو حين يجد نفسه في أي خطر فليثق بأني سألازمه مهما حدث، ولو كان العالم كله ضده.

هيسي : نعم ، أيها الفوهرر .

ولا شك عندما قام بإنقاذه من الحكومة المؤقتة الإيطالية عام ١٩٤٣ قد وفي هتلر بوعده.

❖ ❖ ❖

لقد كانت أمنية العريف النمساوي ، أن يدخل إلى ڤينا دخول المنتصرين ، وفي يوم السبت في الثاني عشر من شهر آذار، أعد الحزب النازي استقبالاً حافلاً للبطل المظفر ، إلا أنه لم يصل أي شخص إلى العاصمة ، بل وصل ثلاثة من الجنود البافاريين الذين ، قدموا لإعداد الترتيبات اللازمة للجيش المحتل ، فرفعوا على الأكتاف ، وبدأت الأخبار تتسرب ببطء ، فقد توقف الجيش عند الحدود مترددًا ، ثم بعد ذلك عند لينز ، وبالرغم من الأحوال الجوية المؤاتية وسهولة المواصلات، فقد تحطمت معظم الدبابات ، وظهرت نقائص المدفعية الثقيلة وعيوبها ، التي سدت الطريق من لينز إلى فيينا المتوقفة عن الحركة ، وقد ألقي باللوم على الجنرال فون ريخناو ، وهو من أقرب المقربين إلى الفوهرر ، الذي كشف التقصير الفاضح في تجهيزات الجيش الألماني .

وقد استاء الفوهرر كثيرًا حين مر في شوارع لينز ورأي هذه الفوضى في حركة السيارات ، وأمر بفصل الدبابات الخفيفة لتستمر في مسيرها ، وهكذا دخلت العاصمة في صباح يوم الأحد، ثم نقلت السيارات المصفحة والمدفعية الثقيلة وغيرها في شاحنات ضخمة لتصل إلى فيينا في الموعد المحدد وتشترك في الاستعراض ، ولا شك أن صورة هتلر، لا تزال ماثلة أمام أعيننا، حين عبر بسيارته شوارع فيينا بين ألوف الجماهير المحتشدة ، منهم المتحمس له ومنهم الخائف منه ، إلا أن الفوهرر لم يكن راضيًا عن فشل آلياته الثقيلة ، وراح يوزع التهم على جنرالاته الذين ردوا عليه بأنهم حذروه من مغبة هذا الهجوم لأن الجيش لم يكن مهيئًا بعد للاشتراك في صراع كبير، إلا أن الجميع سيطروا على أعصابهم ، فاحتفظوا بالمظاهر ، وسارت الاحتفالات الرسمية والاستعراضات في مواعيدها ، وبانتهاء الاستعراض وقف هتلر وأعلن حل الجمهورية النمسوية، وضمها إلى الرايخ الألماني .

❖ ❖ ❖

في هذه اللحظة كان الهر فون ريبنتروب يستعد لمغادرة لندن لاستلام مهام منصبه الجديد كوزير للخارجية، وقد دعي المستر تشمبرلين، في هذه المناسبة إلى حفلة غذاء تقام على شرف السفير بمناسبة سفره، وكنت من جملة المدعوين، وكانت زوجتي تجلس قرب السير إلكسندر كادوغان على مقربة من طرف الطاولة، وبينما كنا نتناول الطعام جاء رسول من وزارة الخارجية يحمل رسالة إلى السير إلكسندر، الذي ما أن قرأها حتى هب واقفًا من مكانه، ثم تقدم من رئيس الوزراء وسلمه الرسالة، وقد لاحظت أن الرئيس قد غرق في قراءة الرسالة، التي بدت هامة للغاية، بينما عاد السير إلكسندر إلى مكانه بكل هدوء، وكانت محتويات الرسالة، كما علمت بعد ذلك، أن هتلر قد غزا النمسا في هذه اللحظة، وأن قواته تتقدم نحو العاصمة، وبعد قليل، قامت السيدة تشمبرلين ودعت الحضور إلى شرب القهوة في غرفة الجلوس، وبدا في هذه الدقيقة أن المستر تشمبرلين وزوجته أرادا إنهاء المأدبة بأسرع وقت، فسيطر شعور من الخوف والقلق على الحضور، وقاموا ليودعوا ضيف الشرف.

أما فون ريبنتروب فكان محتفظًا بهدوئه ووقاره، كأنه غير عالم بما يحدث في تلك اللحظات، وتقدمت من السيدة ريبنتروب، وقلت لها «أرجو أن تتمكن ألمانيا وإنكلترا من الحفاظ على صداقتهما..» وقد أجابتني بلهجتها الرقيقة... «أرجو أن تحرصوا على ألا تفقدوا هذه الصداقة»، وتأكد لي أن السفير وزوجته كانا على علم بما جرى، وأنهما يحاولان إبعاد الرئيس تشمبرلين عن عمله وعن جهاز الهاتف، إلا أنه اضطر إلى أن يقول للسفير: «أنا آسف جدًا، لاضطراري للذهاب لأمر هام جدًا...» ثم غادر الغرفة على الفور، وبقي فون ريبنتروب وزوجته، حتى اضطر الجميع بعد ذلك إلى مغادرة المنزل، وكانت هذه آخر مرة شاهدت الهر ريبنتروب قبل أن يشنق.

وتحرك الروس هذه المرة، ليدعوا إلى مؤتمر عام لبحث الوضع العام. واقترحوا إعادة البحث في مشروع تنفيذ الميثاق الفرنسي-السوفيتي، ضمن حدود عصبة الأمم، في حال تكررت تهديدات ألمانيا للسلام.. إلا أن باريس ولندن استقبلتا هذا الاقتراح بكثير من البرود، فقد كانت فرنسا منشغلة بأشياء أخرى، وكان المستر تشمبرلين لا يزال على تشاؤمه وانهيار معنوياته، ولم يكن ليتفق معي حول تفسير الأخطار المتوقع حصولها وإمكانية تجنبها أو معالجتها حين تحصل، فقد كنت في ذلك الوقت أحبذ هذه الفكرة، أي فكرة قيام تحالف فرنسي-بريطاني-روسي، وكنت متأكدًا أن هذا هو الحل الوحيد لكبح جماح النازيين.

obeikandl.com